بسم الله الرحمن الرحيم

٨٣ ـ سورة المطففين

قال المهايميّ : سميت به دلالة على أن من أخلّ بأدنى حقوق الخلق ، استحق أعظم ويل من الحق . فكيف من أخل بأعظم حقوق الحق ، من الإيمان به وبآياته ورسله ؟ وهى مكية على الأظهر . فإن سياقها يؤيد أنها كأخواتها اللائى نزلن بمكة ، لاسيما خاتمتها . فإنها صفات المستهزئين الذين كانوا بمكة . وحملُها على المنافقين بالمدينة بعيد ، إذ لم يبلغ بهم الحال ذلك . وأما ما رواه النسائيّ وابن ماجه[1] ـ كما فى ابن كثير عن ابن عباس ، لما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا ، فأنزل الله (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكيل ـ فقد ذكرنا مراراً أن معنى الإنزال ، فى إطلاق السلف ، لا يكون مقصوراً على أن كذا سبب النزول . بل إن كذا مما نزل فيه ذلك . كأنّ أهل المدينة تلى عليهم ما سبق إنزاله فى مكة . وقيل لهم : أنزل الله حظر ما أنتم عليه والوعيد فيه . فأقلعوا . وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملكة فيه . ومنه يعلم أن قول بعضهم : نزلت بمكة إلا قصة التطفيف . وقول آخر : إن كل نوع من المكىّ والمدنىّ منه آيات مستثناة ـ منشؤه الحيرة فى المطابقة بين ظاهر ما يتبادر من المأثور فى سبب النزول ، وبين ما يدل عليه السياق من خلافه . وبالوقوف على عرف السلف يزول الإشكال ويتضح الحال .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ١٢ ـ كتاب التجارات ، ٣٥ ـ باب التوقى فى الكيل والوزن ، حديث ٢٢٢٣ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

[٢] (ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

[٣] (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أى هلاك لهم . قال الأصفهانىّ : ومن قال : (وَيْلٌ) وادٍ فى جهنم ، فإنه لم يرد أن (ويلًا) فى اللغة هو موضوع لهذا . وإنما أراد : من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق مقرًّا من النار .

ثم بيّن تعالى المطففين بقوله « ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » أى إذا أخذوا الكيل من الناس يأخذونه وافياً وزائداً . على إيهام أن بذلك تمام الكيل . وإذا فعلوا ذلك فى الكيل الذى هو أجلّ مقداراً ، ففى الوزن بطريق الأوْلى . وإيثار (على) على (من) للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر . شأن المتغلب المتحامل المتسلط ، الذى لا يستبرئ لدينه وذمته « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصونهم حقهم الواجب لهم ، وهو الوفاء والتمام . ففيهما حذف وإيصال .

قال ابن جرير[1] : من لغة أهل الحجاز أن يقولوا : وزنتك حقك ، وكلتك طعامك ، بمعنى وزنت لك وكلت لك .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية ذم التطفيف والخيانة فى الكيل والوزن . أى لأنه من المنكر

(١) انظر الصفحة رقم ٩١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فهو من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل فى الأخذ والدفع ، ولو فى القليل . لأن من دَنُوَّتْ نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته ، وأنه لا يقعده عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة . قال ابن جرير[1] : وأصل التطفيف من الشىء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفف : المقلل حق صاحب الحق عما له من الوفاء والتمام فى كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء فى حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء . وقد أمر تعالى بالوفاء فى الكيل والميزان . فقال تعالى فى عدة آيات : [2](وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) . وقال تعالى[3] (وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ) وقص تعالى علينا أنه أهلك قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال . ثم قال سبحانه متوعداً لهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ)

[٥] (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[٦] (يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ » أى من قبورهم بعد مماتهم « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » أى عظيم الهول جليل الخطب كثير الفزع ، مَن خسر فيه أدخل نارا حامية « يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى لأمره وقضائه فيهم بما يستحقون، فى موقف يغشى المجرم فيه من الهول ، مايود الافتداء بكل مستطاع. وفى تأثر الويل للمطففين بما ذكر فى هاتين الآيتين،

(١) انظر الصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٥] . (٣) [٥٥ / الرحمن / ٩] .

مبالغات فى المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه . ووجه ذلك ، كما لخصه الشهاب ، أن فى ذكر الظن من التجهيل مع اسم الإشارة الدال على التبعيد ، تحقيراً ـ ووصف يوم قيامهم بالعظمة ـ وإبدال (يَوْمَ يَقُومُ) منه ، فإنه يدل على استعظام ما استحقروه . والحكمة اقتضت أن لا تهمل مثقال ذرة من خير وشر .

وعنوان (رب العالمين) للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوته ظالم قوىّ ، ولا يترك حق مظلوم ضعيف ـ وفى تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه ، وأن من لا يهمل مثل هذا ، كيف يهمل تعطيل قانون عدله فى عباده ؟ وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة. فتأمّل هذا المقام ، ففيه ما تتحيّر فيه الأوهام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ)

[٨] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ)

[٩] (كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ)

[١٠] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[١١] (ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ)

« كَلَّآ » ردع عن التطفيف الذى يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به « إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ » أى ما كتب فيه من عملهم السيئ وأحصى عليهم . وإيثار المظهر للإشعار بوصف لهم ثانٍ، وهو الفجور، بخروجهم عن حد العدالة المتفق عليها الشرع والعقل « لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ » أى مسطور بيّن الكتابة . أو معلّم برقم ينبىء عن قبحه . سمى سجيناً ـ فعّيلا من السجن وهو الحبس والتضييق ـ لأنه سبب الحبس والتضييق فى جهنم . فهو بمعنى (فاعل) فى الأصل . أو لأنه مطروح فى أسفل

مكان مظلم . فهو بمعنى (مفعول) كأنه مسجون لما ذكر . وقيل : هو اسم مكان ، فيقدر مضاف فيه أو فيما بعده . والتقدير : ما كتاب سجين أو محل كتاب مرقوم؟ فحذف المضاف. وقيل إنه مشترك بين المكان والكتاب. وقال الأصفهانىّ: السجين اسم لجهنم بإزاء عِلِّيِّين. وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه . وقيل : هو اسم للأرض السابعة .

ثم قال : وقد قيل إن كل شيء ذكره الله تعالى بقوله (وَمَآ أَدْرَىٰكَ) فسّره . وكل ما ذكره بقوله (وَمَا يُدْرِيكَ) تركه مبهماً. وفى هذا الموضع ذكر (وَمَآ أَدْرَىٰكَ) وكذا فى قوله (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ) ثم فسّر الكتاب ، لا السجين والعليون . وفى هذه الطبقة موضعها الكتب التى يتبع هذا الكتاب ، لاهذا . انتهى .

وقال القاشانىّ : (لَفِى سِجِّينٍ) فى مرتبة من الوجود مسجون أهلها فى حبوس ضيقة مظلمة أذلاء أخساء فى أسفل مراتب الطبيعة ودركاتها . وهو ديوان أعمال أهل الشرّ . ولذلك فسّر بقوله (كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ) أى ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم ، كتاب مرقوم برقوم هيئات رذائلهم وشرورهم «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ» أى بيوم الحساب والمجازاة. وفيه إشعار بأن المطففين ممن يتناولهم هذا الوصف. لأن إصرارهم على التعدى والاجترام يدل على عدم الظن بالبعث . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

[١٣] (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ » أى مجاوز طور الفطرة الإنسانية ، بتجاوزه حد العدالة، إلى الإفراط فى أفعاله بالبغى والعدوان « أَثِيمٍ » أى مبالغ فى ارتكاب أفانين الإثم وأنواع المعاصى «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ» أى ماسطروه من الأحاديث والأخبار . يريد أنه ليس بوحى ربانىّ ، ولا تنزيل إلهىّ. مع نصوع بيانه وشواهد برهانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« كَلَّا » أى ليست هذه الآيات بأساطير الأولين . بل هى الحق المبين ، والشفاء لما فى الصدور « بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غطّى على مدارکهم ما اكتسبوه من الآثام حتى كدّر جوهرها وصار صدأ عليها بالرسوخ فيها . و (الرين) أصل معناه الصدأ والوسخ القارّ ، شبه به حب المعاصى الراسخ فى النفس . وذلك أنه يحصل من تكرار الفعل ملكةٌ راسخة لاتقبل الزوال ، وصفة للنفس قارّة فيها . فبكثرة المعاصى يرسخ حبها فى القلب بحيث لا يزول ، كالصدأ الذى لايزول بسهولة . قال فى (الأساس) : الران ماغطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب . من قولهم (ران عليه الشراب والنعاس) و (ران به) إذا غلب على عقله . و (رين بفلان) ونظيره الغين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)

« كَلَّا » ردع لهم عن الكسب الرائن على قلوبهم . أو بمعنى حقًّا « إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ » قال ابن جرير[1] : أى فلا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته يصل إليهم ، فهم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته . وتخصيص الحجب بهؤلاء يقتضى أن غيرهم غير محجوب فيراه الله تعالى ويرى كرامته . قال الشهاب : لما كان الحجاب هو الساتر من ستارة بزّ وغيرها ، استعير تارة لعدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب . وتارة للإهانة ، لأن الحقير يحجب ويمنع من الدخول على الرؤساء . ولذا قالت العرب : الناس ما بين مرحوب ومحجوب ، أى معظم ومهان . وهو بمعانيه محال أن يتصف به الله . فلا يصح إطلاقه عليه تعالى ، كما صرحوا به . وإنما يوصف به الخلق ، كما فى هذه الآية . فإذا أجرى على اسم من أسمائه تعالى ، فهو وصف سببىّ لا حقيقىّ . بل التشبيه للخلق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ)

[١٧] (ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)

« ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » أى محترقون بها . وقد أشار القاشانىّ إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما اكتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدّر جوهرها وغيّرها عن طباعها . فعندها تحقق الحجاب وانغلق باب المغفرة ، ولذلك قال : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) لامتناع قبول قلوبهم للنور ، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطرىّ . كالماء الكبريتىّ مثلا ، إذ لو روّق أو صعّد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة ، لاستحالة جوهرها . بخلاف الماء المسخن الذى استحالت كيفيته دون طبيعته . ولهذا استحقوا الخلود فى العذاب ، وحكم عليهم بقوله (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) انتهى .

قال ابن القيم فى (بدائع الفوائد) فى هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار . فألم الحجاب يفعل فى قلوبهم وأرواحهم ، نظير ما تفعله النار فى أجسامهم . كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه فى الدنيا ، وأخذ بأشد العذاب . فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه ، وهى ممنوعة من الوصول إليه . فكيف إن حصل لها ، مع توارى المحبوب عنها وطول احتجابه ، ببغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأى نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذى لا يتصوره إلا من بلى به أو بشىء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما فى احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب . وأنت ترى المحبين فى الدنيا لصورة ، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجّون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره ؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة ، كما[1] قال :

وكنتُ أرَى كالموتِ من بَينِ لَيْلَةٍ ... فكيفَ بِبَيْنٍ كَانَ ميعادَه الحشرُ

(١) من الحماسية رقم ٣٨٥ لسَلَمة الجعفىّ يرثى أخاه لأمه . وأولها : =

وإنما يتبين الحال فى هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لاسعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكماله ولذته فى أن يحصل فيه ماخلق له، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنطق واليد للبطش والرجل للمشى والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره . وجعل هذا كالها وغايتها. فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالًا من العين والأذن واللسان واليد والرجل، التى تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه. بل لانسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة. بل ألمها أشد الألم. وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لاحياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذى لا تقرّ عينها إلا بقربه والأنس به والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة فى الدنيا . فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب

= أقول لنفسى فى الخلاء ألومها : لكِ الويل! ما هذا التجلدُ والصبرُ

قال الشارح المرزوقىّ :

قوله (كالموت) جعل الكاف وحده اسماً . وسيبويه لايرى ذلك إلا فى الضرورة . كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يمتنع أن يكون (كالموت) صفة لموصوف محذوف . كأنه قال : وكنتُ أرى شيئاً أو أمراً مثل الموت .

وقوله (من بين ليلة) من، دخل للتبيين. والمعنى : كنت أعدّ مفارقتى له فى ليلة كالموت، أو أقاسى مثل الموت من أجل مفارقة ليلة منه ، فكيف يكون حالى وقد فرّق بينى وبينه بَيْنٌ ، موعدُ الالتقاء بعده يومُ القيامة .

الذى كان يحجبها فى الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه . وفى حديث الرؤية[1] : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه .

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعى النعيم نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب والنكاح والتمتع بما فى الجنة ، فى قوله[2] (وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) الآيات اه .

« ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ » أى فى الدنيا . قال الإمام: تبكيتاً لهم وزيادة فى التنكيل بهم . فإن أشد شىء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه ، أن يذكر وهو يتألم له ، بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها . وأسباب التفصّى عنه كانت فى مكنته فأغفلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ)

[١٩] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ)

[٢٠] (كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ)

[٢١] (يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ)

« كَلَّآ » ردع عن التكذيب ، أو بمعنى حقًّا « إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ » قال القاشانىّ : أى ما كتب من صور أعمال السعداء وهيآت نفوسهم النورانية وملكاتهم الفاضلة ، فى عليين . وهو مقابل للسجين ، فى علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير . كما قال « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ » أى محل شريف

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٦ ـ كتاب الجنة ، ١٦ ـ باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى .

(٢) [٧٦ / الإنسان / ١١].

رقم بصور أعمالهم « يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » أى يحضره المقربون من حضرة ذى الجلال ، كما فى آية[1] (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

والمقربون هم الأبرار . أعاد ذكرهم ، بوصفٍ ثان ، تنويهاً بهم وتعديداً لصفاتهم . أو هم الملائكة إجلالاً لهم وتعظيماً لشأنهم .

ولما عظم تعالى كتابهم ، تأثره بتعظيم منزلتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[٢٣] (عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ)

[٢٤] (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

[٢٥] (يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ)

[٢٦] (خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ » أى عظيم دائم ، وذلك نعيمهم فى الجنان « عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ » أى على الأسرة والمتكآت ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة وأفانين النعيم « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » أى بهجته ورونقه ، كما يرى على وجوه المترفين ماؤه وحسنه « يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ » أى خمر ، إلا أنه خص بالخالص الذى لا غش فيه ، كما قال حسان[1] :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ[2] عليهم بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيقِ السَّلْسَلِ

(١) [٥٤/القمر/٥٥] . (٢) البريص : نهر بدمشق . وبَرَدَى : نهر آخر بدمشق . وقوله (بردى) أى ماء بردى . ويصفّق أى يمزج . والرحيق الخمر البيضاء . والسلسل اللينة السهلة الدخول فى الحلق . وذلك من قصيدته التى مطلعها :

أسألتَ رسم الدار أم لم تسأل ؟ بين الجوابى فالبُضَيْع فحَوْمَلِ

(شرح البرقوقىّ ص ٣٠٧) .

ومنه قولهم . مسك رحيق لاغش فيه ، وحسب رحيق لاشوب فيه .

وقوله تعالى : « مَّخْتُومٍ » أى ختم على أوانيه تكريما له لصيانته عن أن تمسه الأيدى على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان « خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ » . قال القفال : أى الذى يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق، هو المسك، كالطين الذى يختم به رؤوس القوارير فكأن ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم .

وعن بعض السلف واللغويين: المختوم الذى له ختام أى عاقبة، وقد فسرت بالمسك. أى من شربه كان ختم شربه على ريح المسك . والقصد لذة المقطع بذكاء الرائحة وأرجها ، على خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة «وَفِى ذَٰلِكَ» أى النعيم المنوه به وما تلاه «فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ » أى فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى .

قال ابن جرير : التنافس أن ينفس الرجل على الرجل بالشىء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه . وهو مأخوذ من الشىء النفيس ، وهو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه وتشتهيه . وكأن معناه فى ذلك: فليجدّ الناس فيه وإليه، فليستبقوا فى طلبه ولتحرص عليه نفوسهم . وقال الرازىّ : إن مبالغته تعالى فى الترغيب فيه تدل على علوّ شأنه . وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا فى النعيم الذى هو مكدر سريع الفناء . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ)

[٢٨] (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ)

« وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ » عطف على (ختامه) صفة أخرى (لرحيق) وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته. أى مايمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم. والتسنيم فى الأصل مصدر سنمه بمعنى

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

رفعه ، ومنه السنام . سمى الماء به لارتفاعه وانصبابه من علوّ. وقد بينه بقوله « عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ » أى يشربون بها الرحيق ، والكلام فى الباء، كما فى آية[1] (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) من كونها زائدة ، أو بمعنى (من) أو صلة الامتزاج أو الالتذاذ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)

[٣٠] (وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

[٣١] (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا » يعنى كفار قريش « كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ » أى استهزاء بهم لإيمانهم بالله وحده وبما أوحاه إلى رسوله صلوات الله عليه، ونبذهم ما ألفوا عليه آباءهم .

قال الإمام : الذين أجرموا هم المعتدون الأئمة الذين شَرِيَتْ نفوسهم فى الشر ، وصَمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق . هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا . ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالم ببعثة النبىّ ﷺ ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهماء وفى ضلال العامة. وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه . ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيلَ الحق إلى قلوبهم فيُسِرُّ بها إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه . ومن شأن القوىّ المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً . كذلك كان شأن جماعة من قريش، كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم. وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع، وتفرقت الشيع وخفى طريق الحق بين طرق الباطل، وجهل معنى الدين، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه، ولم يبق إلا ظواهر

(١) [٧٦ / الإنسان / ٦] .

لاتطابقها البواطن، وحركات أركان لاتشايعها السرائر. وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب. وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب. وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل. وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل. واستوى فى ذلك الكبير والصغير، والأمير والمأمور، والجاهل واللقب بلقب العالم. إذا صار الناس إلى هذه الحال، ضعف صوت الحق وازدرى السامعون منهم بالداعى إليه. وانطبق عليهم نص الآية الكريمة. انتهى.

« وَإِذَا مَرُّواْ » أى الذين آمنوا « بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » أى يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية. والغمز: الإشارة بالجفن والحاجب.

قال السيوطىّ: وفى هذا دلالة على تحريم السخرية بالمؤمنين، والضحك منهم، والتغامز عليهم «وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ» أى هؤلاء المجرمون من مجالسهم «إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ» أى متلذذين بالسخرية وحكاية مايعيبون به أهل الإيمان. أو بما هم فيه من الشرك والطغيان والتنعم بالدنيا.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٢] (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ)

[٣٣] (وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ)

[٣٤] (فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[٣٥] (عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ)

[٣٦] (هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْهُمْ » أى رأوا المؤمنين «قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ» أى لتركهم ما عليه العامة، والاعتصام بغيره. وقوله تعالى « وَمَآ أُرْسِلُواْ » أى هؤلاء المجرمون القائلون ماذكر

« عَلَيْهِمْ » أى على المسلمين « حَٰفِظِينَ » أى لأعمالهم . جملة حالية من (واو قالوا) أى قالوا ذلك ، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم ، يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم . وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترأوا عليه من القول ، من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

وقد جوّز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين . كأنهم قالوا : إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام . وإنما قيل (عَلَيْهِمْ) نقلًا له بالمعنى كما فى قولك (حلف ليفعلنّ) لا بالعبارة ، كما فى قولك (حلف لأفعلنّ) أفاده أبو السعود « فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » تفريع على ما قبله ، للدلالة على أنه جزاء سخريتهم فى الدنيا . و (اليوم) يوم الدين والجزاء . وضحكهم من الكفار ضحك المسرور بما نزل بعدوّه من الهوان والصغار ، بعد العزة والكبر . « عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ » إلى ما أوتوا من النعيم ، وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم « هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ » أى جوزوا ثواب ما كانوا يفعلون فى الدنيا .

والجملة متعلقة بـ (يَنظُرُونَ) فى محل نصب بعد إسقاط الجار . أو مستأنفة . والاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين ، تعظيما لهم وتكريما وزيادة فى مسرتهم . أى هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ، أى أنه فعل . و (ما) مصدرية أو موصولة .

وثوّبه وأثابه بمعنى جازاه . وهو من (ثاب) بمعنى رجع . فالثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله . ويستعمل فى الخير والشر .

ونظير هذه الآيات قوله تعالى[1] (ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) .

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨ـ١١١] .